دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	سلامة موسى وإشكالية النهضة
المصدر:	مجلة الفكر العربي المعاصر - مركز الإنماء القومي - لبنان
المؤلف الرئيسي:	زراقط، عبدالمجيد
المجلد/العدد:	ع 37
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1986
الشهر:	يناير
الصفحات:	111 - 113
رقم MD:	433934
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الطائفية ، الفكر العربي ، المفكرون العرب ، موسى ، سلامة ، الاستعمار ، مصر ، التغريب ، الليبرالية ، الاشتراكية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/433934

© 2018 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

سلامة موسى وإشكالية النهضة

عبد المجيد زراقط

هذه الدراسة(*) التي «نرغب في أن تكون مساهمة متواضعة في فهم الكفاح الثقافي الموسوي وتقويمه» تبدو دراسة متميّزة؛ ذلك أنها تسعى إلى إنتاج خطاب يجتهد لتحقيق أمرين، أولهما البحث في الشروط التاريخية العامّة التي واكبت خطاب سلامة موسى، وثانيهما الاهتمام بصياغة مفاهيم هذا الخطاب ومحاوره الكبرى، وإبراز علاقة هذه المفاهيم والمحاور بمجراها التاريخي.

ويمارس مؤلف هذا الكتاب عمله، في كتابه، بوصفه مؤرخاً للفكر العربي المعاصر، موجهاً بالمفاهيم والادوات الفكريّة المعترفة بتاريخية الفكر، اي المفاهيم والأدوات الفكريّة المقرَّة بعدم انفصال البنيات الايديولوجية عن محيطها التاريخي، وبصميمية ارتباط الانتاج النظري المعاصر بواقعه.

والحق أن هذا التميز المنهجي، فضلاً عن اسباب أخرى، هو ما يجعلنا نقدِّم هذا الكتاب للقراء، في قراءة عجلى، وذلك على الرغم من مضي ثلاث سنوات على صدوره، والأسباب الأخرى تتلخص في كون هذا الكتاب يتناول مشروعاً ثقافياً لم يعطَ الأهمية الموازية لحضوره الفكري، وفي كونه أيضاً يعالج بقدر كبير من الجدية إشكالية لا تزال قائمة، ونعني بهذه الإشكالية إشكالية النهضة/ التحديث.

يحدد المؤلّف، الأستاذ كمال عبد اللطيف، هذه الإشكالية فيرى أنها تتلخّص في انتاج استراتيجية تلغي التأخُّر التاريخي وتحقق النهضة/ التحديث. ويحاول، على أثر تحديده هذه الإشكالية، إنتاج قراءة تركيبية تاريخية للخطاب الموسوي الذي واجه هذه الإشكالية؛ مركزاً، في صنيعه هذا، على مجموعة من المنطلقات/ الموجِّهات الصريحة والضمنية التي حدّدت الخطوط العامّة للبحث، ومنها كما يقول المؤلف خصوصية انتماء سلامة موسى إلى الأقليّة القبطية؛ والرؤية إلى مشروع سلامة موسى بوصفه إسهاماً في جدل النهضة سعى للتفكير في واقع التأخر التاريخي ومحاولة لصياغة رؤية تقترح بديلاً لهذا الواقع. ومن هذه الموجهات ايضاً السعي إلى تبيان الاطروحة المركزية في الخطاب الموسوي؛ وهي الدفاع عن نموذج النهضة الغربية والتقدّم الغربي. هذا مع الحرص على أن يكون التعامل مع المشروع الثقافي موضوع الدرس تعاملاً نقدياً لا يخضع لأيّ مبرر برغماتي، وعلى أن يكون التقويم تاريخياً يتم التوصّل إليه من «محاولة البحث في العلاقة بين الطموح النظري الموسوي وأحوال الواقع المصريّ والعربيّ الراهنة» (ص ١٢).

وقد أتاحت هذه المحاكمة النقديّة التي أنجزها المؤلِّف الفرصة له لـ «التفكير وإعادة التفكير في معضلات الواقع العربيّ، أي في النهضة العربيّة التي لم تتحقق بعد».

وأمكن للمؤلف، بعد ان مهَّد لبحثه بمقدمة مستفيضة تناولت المنهج وأبرز القضايا والمسائل بالتقديم والإيضاح، أن يحدّد تفريعات البحث الجزئية في قسمين كبيرين هما:

١ ـ الشروط التاريخية والنظرية الممهِّدة لتبلور الخطاب الموسوي.

٢ ـ الخطاب الموسوي/ أطروحته المركزية ومفاهيمه الكبرى.

وقد احتوى القسم الاول ثلاثة فصول، تناول الأوّل منها بالبحث الهيمنة الاستعمارية والتأخر التاريخي/ مصر من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٥٢؛ حيث بيَّن أهمية هذين المفهومين في تحديد قسمات الواقع المصري.

ولما كان الإطار التاريخي لا يتحدَّد بشروطه المادية وحدها فحسب، وإنما بإضافة صورة الانتاج النظري المواكب لتلك الشروط والمعبر عن قضاياها بحث الفصل الثاني، من القسم الأول، في الخطاب النهضوي العربي/ اشكاليته المركزية ومفاهيمه الكبرى.

وقد تم، في هذا الفصل، تحديد المجال الثقافي المعاصر لسلامة موسى، وبدا للمؤلف «ان هذه الخطابات، رغم وحدة اشكاليتها، لم تكن موحَّدة المضمون والرؤية؛ وذلك بحكم

(*) «سلامة موسى وإشكالية النهضة»، لمؤلفه كمال عبد اللطيف بيروت: دار الفارابي والدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، الطبعة الاولى، ١٩٨٢، ٢٧٢ ص.

المواقع الاجتماعية المختلفة لفئات المثقفين» (ص ٤٨) الذين يقسمون إلى فئتين: سلفية وليبرالية، مع الاشارة إلى وجود بعض التعدد داخل كل من هاتين الفئتين. ويكتفي المؤلف، في هذا المقام، بتقديم الاطار العام لخطاب كل من الفئتين مستخلصاً أهم مفاهيمه ومرتكزاته النظرية.

يبحث المؤلف، في الفصل الثالث من القسم الأول، مكوّنات الخطاب الموسوي ومصادره على المستوى الذاتي، فيتقصّى دلالات انتمائه الطائفي للأقلية القبطيّة، ويبرز السمات التي تميّزه والتي أسهمت في صياغة رؤيته التغريبيّة، باعتبارها بديلاً لأحوال التأخّر التاريخي؛ ويحدّد، من ثم، الروافد الفكرية التي اسهمت أيضاً في تكوين خطابه، متوقفاً عند ظاهرة الانتقائية في الخطاب الموسوي.

في إطار الشروط التاريخية التي تم تحديدها في القسم الاول، يبحث المؤلف في الخطاب الموسوي/ أطروحته المركزية ومفاهيمه الكبرى، وهو القسم المعني أساساً بالبحث، ويتوزع على ثلاثة فصول.

ويبحث المؤلف، في الفصل الأول من القسم الثاني، في الخطاب الموسوي واشكالية النهضة فيحدّد محاور الخطاب الموسوي وأبعاده ويوضح صورته النقديّة ويصوغ الأطروحة المركزية الثاوية خلف ممارسته النظرية. ويرى المؤلف أن خاصية المشروع الثقافي الموسوي الرئيسية هي: التنوير النقدي، وأن هذا المشروع ينطلق في دفاعه عن استراتيجية الاصلاح الليبرالي من عدة مبادىء ذات منحى طوباوي (ص ١٣٦ - ١٣٨).

وفي الفصل الثاني من القسم الثاني، يبحث المؤلف في المفاهيم المركزية في الخطاب الموسوي، فيحدد المفاهيم التي بلورها سلامة موسى أثناء صياغته لمشروعه الثقافي، معتبراً أن الزوج: شرق/ غرب يهيمن على أغلب جوانب الخطاب الموسوي، ويشكل أحد ثوابت الممارسة النظرية المعاصرة؛ وذلك بحكم الهيمنة الغربية الحاصلة في الواقع وفي الفكر؛ هذه الهيمنة التي حتمت حواراً بين الذات والآخر.

وفي هذا الفصل حدد الاستاذ كمال عبد اللطيف صورة للزوج المفهومي: شرق/ غرب في خطاب النهضة العربية المعاصرة وفي الخطاب الموسوي. وكان بالغ الدقة عندما رأى أن السِّمات المكوِّنة هي سمات تاريخية، في صيرورة مستمرة، وهذا يعني أن ليس من شرق وغرب في المطلق؛ فأوروبا، على سبيل المثال، كانت، في فترة من تاريخها، تتميز بالسمات نفسها التي يتميّز بها الشرق الراهن.

ويتابع المؤلف، في الفصل الثالث من القسم الثاني، تحديد المفاهيم المركزية المحدّدة للخطاب الموسوي، فيحاول إعادة بناء الخطاب الموسوي على ضوء مفهومي الليبرالية والاشتراكية؛ وذلك في إطار توضيح ماهية الغرب في هذا الخطاب؛ فهو غرب/ العقلية والتقنية وغرب الاشتراكية، والاشتراكية الفابيّة تحديداً.

وعلى أثر إنجاز الخطاب الموسوي/ أطروحته ومفاهيمه الكبرى، يختم الباحث دراسته منجزاً تقويماً عاماً حول انتقائية الخطاب الموسوي وهامشيته. وقد خلص الدكتور عبد اللطيف، في هذا التقويم، إلى القول: إن أهمية سلامة موسى تكمن في أنه افتتح جبهة ثقافية نقدية تنطلق من حتمية انتصار المعطيات التاريخية الغربية وشموليتها.

وفي النهاية، يرى المؤلف أن الخطاب الموسوي هو خطاب انتقائي لا تنتظمه رؤية متماسكة، كما أنه هامشي، ولا يعدو كونه عملاً ثقافياً معزولاً عن الممارسة السياسية، فضلاً عن أنه يتبنى اشتراكية تناهض الاشتراكية العلمية، فيكتفي بوضع أسس جبهة ثقافية تغريبية.

ويؤكد الاستاذ عبد اللطيف أن ما توصل إليه من نتائج إنما تمّ عن طريق ممارسة توخّت الاستماع إلى الخطاب الموسوي باعتباره جزءاً من احداث التاريخ المعاصر (ص ١٧).

قد يكون في هذا العرض الذي أنجزناه عجلين تبيانٌ لبعض الجوانب الإيجابية في هذه الدراسة المميَّزة، هذه الجوانب التي يمكن لأيّ قارىء متأنٍ تبيّنها. ويبقى أن نتوقّف، وفي تعليق سريع وبقدر ما يتيحه المجال، حيال بعض النقاط التي نرى أنها ذات اهمية.

تتعلّق النقطة الاولى التي نود التوقف عندها بالجبهة الثقافية التغريبية التي اسسها سلامة موسى، أو أسهم في تأسيسها، والتي لا تزال مستمرّة حتى الفترة الراهنة من تاريخنا.

يستهلّ المؤلف كتابه بنصّين يفردهما ويبرزهما في الصفحة الأولى، ولا يخفى ان هذا الابراز ذو دلالة مقصودة. يتحدث هذان النصّان، كما يبدو، بلسان الجبهة الثقافية التغريبية، النص الأول لسلامة موسى، ويقول فيه إنه لا يستطيع أن يتصوّر نهضة عصريّة لأمة شرقية «ما لم تتم على المبادىء الاوروبية للحرية والمساواة والدستور مع النظرة العلمية الموضوعية للكون». والنص الثاني لعبد الله العروي، ويقول فيه ان اجتثاث الفكر السلفي من محيطنا الثقافي يستلزم منا «الرضى بأن نتميّز مؤقتاً عن الغير بنبرتنا فقط، لا بمضمون ما نقول. ربّ معترض يقول: ستكون حينئذٍ ثقافتنا المعاصرة تابعة لثقافة الغير! وليكن إذا كان في ذلك طريق الخلاص».

لعل المؤلف يشير إلى القرابة بين هذين النصين عندما يسلّط عليهما الاضواء الاولى، ويتأكد لنا هذا عندما نقرأ للمؤلف قوله أن الجبهة التي اسسها سلامة موسى تستمر في مناخنا الفكري الحالي، و«أن الممارسة النظرية لكلٍّ من عبد الكبير

الخطيبي وعبد الله العروي تشكل امتداداً متقدّماً لهذه الجبهة النقدية التي افتتحها سلامة موسى» (ص ٢٤٢).

والواقع ان المؤلف لا يكتفي باقرار هذه القرابة وإبرازها، وانما يقوم بتقويم الاتجاه الذي تنتمي إليه. عندما يقول في مكانين منفصلين:

ـ إن الأسئلة التي صاغها سلامة موسى لا تزال تبحث عن أجوبة ورؤى تتخطى التناقض والانتقائية، الهامشية، التبعية والتراجع... (ص ٨).

ـ «إن الغرب المهيمن اقتصادياً وسياسياً يمارس بكل عنفوان استمرار التمايز وعدم اللقاء... إن الوصاية الاستعمارية، في مختلف اشكالها، لا يمكن أن تصنع من الشعوب المستعمرة إلا شعوباً تابعة» (ص ١٦٨).

ونحن، في تعليقنا، هل يحق لنا أن نتساءل، عما إذا كان الدكتور كمال عبد اللطيف يعتقد أن الجبهة التغريبية تلتقي والوصاية الاستعمارية في تحقيق التبعية!؟ ثم لا بد لنا من طرح السؤال التالي: هل يريد الاستاذ العروي ان يلتقي والوصاية الاستعمارية في تحقيق الغرض نفسه؟ وهل يفعل هذا عن وعيٍّ أو أنه يتصرّف بمزاج عصبيٍّ يضيق ذرعاً بالفكر السلفي ويتعالى عن الواقع او ينفصل عنه ولا يكون مثقفاً عضوياً يسعى من أجل إيجاد فكر بديل للفكر السلفي، فلا يكون الاجتثاث لمجرد الاجتثاث أو للوقوع في ما هو أدهى وأمر.

إن الفكر الذي يكون مضمونه للغير ونبرته لنا فكر مسخ غير طبيعي وغير سويّ، وليس هو البديل للفكر السلفيّ. لأن البديل هو الفكر الذي يتعامل جدلياً مع الواقع الذي نحيا، فيكون نابعاً من هذا الواقع وفاعلاً فيه في الوقت نفسه، فيكون وليداً طبيعياً يحدّد فيه المضمون والنبرة الكلّ التعبيريّ. هذا من نحو، ومن نحو آخر، أليس من الواضح أن أوروبا ليست كلاً موحداً تمتلك المفاهيم نفسها حتى على صعيد البلد الواحد؟ ثم هل هناك مفهوم واحد في اوروبا لهذه المبادىء ولممارسة واحدة لها؟ وهل أن النظرة العلمية للكون محصورة في اوروبا وحدها؟

إن ما نود التأكيد عليه هو أن اي مبدأ عام يتحدد مفهومه وممارسته أيضاً وفق البنية المجتمعية التي تفرزه وتتيح تحققه، أي أنه تاريخي، فلنكن إذاً تاريخيين في فهمنا للأمور وفي تقويمنا لها، وكوننا ندعو إلى المنهج التاريخي، يقتضي منا التوقف لدى النقطة الثانية، ونعني بها الموقف من الماضي.

يقول الدكتور كمال عبد اللطيف: «إن ما اعتبرناه ايجابياً في الخطاب الموسوي هو دعوته إلى نبذ الماضي» (ص ٢٢٨).

إن الموضوع الذي تثيره هذه العبارة على قدر كبير من الاهمية، وقد سال فيه مداد كثير، ويهمنا أن نلاحظ، في البدء، خطابية الحكم في هذه العبارة وعدم صدوره عن منهج تاريخي، فمن البديهي أن نبذ الماضي لا يمكن أن يتم بقرار، هذا فضلاً عن ان «النّبذ» بحد ذاته مستحيل لأكثر من سبب، فالماضي حاضر فينا شئنا أم أبينا، إنه بعض مكوّنات الشرط التاريخي، والمقولة الصحيحة هي التأكيد على التعامل مع الماضي بفكر جدلي يستطيع أن يميز أيضاً بين ماضٍ وماضٍ، ويستطيع كذلك الافادة من العقلية التي وقفت وراء الانجازات الرائعة التي حققها الأسلاف، تماماً كما يستطيع الافادة من العقلية التي وقفت وتقف وراء انجازات الغرب التي يقول عنها المؤلف: «مبدأ آخر ذو طبيعة إيجابية في مستوى حده المنطقي، وهو التسلح بالمنجزات النظرية والتطبيقية المتحققة في حاضر الغرب» (ص ٢٢٩).

ما نريد تأكيده، في ما يتعلق بالنقطتين سالفتي الذكر، هو ان يكون موقفنا تاريخياً، يحدّد طبيعة المرحلة التاريخية ويصوغ اسئلتها ويجتهد في الاجابة عن هذه الاسئلة الملموسة تاريخياً بأجوبة تحقق الانماء والتطوّر وليس التبعيّة، سواء أكانت سلفية أم تغريبيّة.

والواقع ان تحديد طبيعة المرحلة وصياغة أسئلتها والأجوبة عنها هو ما نودّ التوقف عنده في نقطة أخيرة تتعلّق بوصف المؤلّف لخطاب سلامة موسى بالانتقائي والهامشيّ. ففي تقديرنا ان سلامة موسى قدّر طبيعة المرحلة التاريخية التي عاصر، ورأى أن المهمة المرحلية تقتضي أن يقوم بعمل تثقيفي عسى ان يكون «خميرة تختمر بها الأفكار إلى حين تستعد البلاد للاشتراكية» (ص ٢٠٥). وأعتقد ان سلامة موسى كان يعي مهمته وعياً تاماً، وقد تحقق هذا الوعي في سعيه الى التنوير عن طريق خطاب يحقق هذه المهمة مضموناً وشكلاً، فمن حيث المضمون اهتم بنشر خطاب تثقيفي عام ومن هنا انتقائيته، ومن حيث الشكل سعى إلى أن يغطي هذا الخطاب اعرض جمهور ممكن، فجاء على شكل مقالات قصيرة مبسّطة سهلة تحتوي كل مقالة على فكرة واحدة، وقد كانت هذه المقالات سهلة ممتعة ومفيدة. وهكذا كان سلامة موسى، في تقديري، واعياً لما يريد تحقيقه ولما اعتقد انه الممكن في الفترة التاريخية التي عاصر، وفي حدود الامكانات المتاحة له.

وفي كلمة أخيرة، إن هذا الكتاب جدير بالقراءة المتأنية، وحبّذا لو لم يكن بالغ التركيز شديد العمومية، ولو تأنّى مؤلفه في إيراد النماذج وقراءتها ووضعها في إطارها التاريخي المرافق لصدورها. كما ان هناك أمراً آخر نود الاشارة إليه وهو وفرة الاخطاء المطبعية في الكتاب، فضلاً عن التشويهات في بعض الصفحات، ونشير إلى هذا الأمر مؤكّدين على ضرورة احترام القارىء الذي نخاطب، فمن حقه عندما يقرأ فكراً جيداً أن ينعم بطباعة جيّدة.

د. عبد المجيد زراقط